



كان يقول لسيدته ونظراته تنطق بالروعة والاعجاب :

« لسوف يكون ابنك قاصياً يوماً من الأيام . »  
 وكانت الأيام لا تترى إلا وفي أحشائها أعاجيب  
 جدد ؛ فعندما بدأ الطفل يتعلم كيف ينقل خطاه  
 بمضها في إثر بفض ، رأى زتشاران في ذلك عصرأ  
 جديداً من تاريخ البشر . حتى إذا ما جال لسانه في  
 شدقه بافظ : « بابا » لأبيه ، ولقب « ما - ما »  
 لأمه ، وكنية : « شارانا » لربيه ، استخف المرح  
 زتشاران ، فراح ياتي بالخبر إلى كل من بصرت  
 به عيناه

وأتى على ذلك حين من الدهر فأصبح على  
 زتشاران أن يظهر عبقريته بأساليب أخرى ؛ فقد  
 كان عليه أن يلعب دور حصان مثلاً ، يثب على  
 أقدامه ويمسك اللجام بين أسنانه . ثم يصارع جملة  
 الخفيف ، ويحتمل ايرتمى على ظهره مهزوماً مغلوباً .  
 فان هو فشل فتم صخب ونخب

وفي ذلك العهد حول أنوكول إلى مقاطعة على  
 ضفاف البادما . فابتاع لابنه - وهو في الطريق إلى  
 كلكتا - عربية صغيرة ، كما اشترى له صداراً من  
 ساتان أصفر ، وقيمة ذات شرائط مذهبة ، وأساور  
 وخلاخيل من ذهب . فكان من دأب زتشاران  
 - كلما خرج في نزهة مع صاحبه - أن يخلعها  
 عليه جميعاً في زهو وكبرياء

- ١ -

كان زتشاران يباغ من العمر اثني عشر عاماً  
 عندما لحق بخدمة سيده ؛ وإذا كان يتمتع وإياه إلى  
 جنس واحد فقد صار إليه أمر العناية بابنه الصغير  
 ودار الزمن دورته فانقل الطفل من بين ذراعي  
 زتشاران ليذهب إلى المدرسة ، ثم إلى الجامعة ، ثم  
 ليتبوا منصباً في القضاء

واقعد انفرد زتشاران بخدمته طيلة ذلك العهد  
 حتى إذا ما تزوج شعر الرجل الأمين بأنه قد أصبح  
 مولى لسيدين بعد أن كان تابعاً لسيد واحد ، فقد  
 طار من بين يديه ما كان له من سلطان ، ثم استقر  
 على بساط السيد الجديد

غير أن زتشاران لم يلبث أن صرفه عن كل  
 ذلك قادم ثان ، فقد أنجب أنوكول طفلاً ، وملك  
 زتشاران قياد الطفل بلطف عنايته ، وحسن رعايته  
 فكان يلاعبه ويداعبه ، ويلاغيه وبناعيه ، ويلصق  
 خده بخده ، ثم ييمده عنه وقد أضاعت صفحته  
 ابتسامة لطيفة

ومرعان ما استطاع الطفل أن يحبو وأن يجوز  
 باب المنزل ؛ وعند ما كان زتشاران يذهب ليأتي به ،  
 كان يجالجل بضحكات غابثة ، فيأخذ العجب من  
 زتشاران مأخذه ، ويدهن لسا يديه الطفل عند  
 مطاردته من تدبير بارع ، وحكم صائب . حتى لقد

فأشار بيده إلى الاتجاه المضاد وهو يقول حافظاً مستثيراً : « انظر ! انظر ! أيها الطفل ! انظر هذا الطائر .. » ثم دفع بالمربة بمبدأ عن الشجرة وهو يدمدم بأصوات لا معنى لها

ولكن ليس من اليسير أن يخدع طفل قديم له أن يتربع على أريكته الحكم ، ويتبوأ منصة القضاء ! ثم إنه لم ير شيئاً خليقاً بأن ياقى إليه باله ، أو يوجه أنظاره ؛ وإيهامه بوجود طائر خيالي أمر لم يمد في الامكان

وتشبث السيد الصغير برأيه ، فرضخ له رتشاران ، وقال أخيراً : « حسناً أيها الطفل ، إجلس أنت في عربتك قرير العين ، وسوف أذهب فأتيك بما شئت من زهر جميل .. ولكن حذار أن تقرب الماء .. »

وما كاد رتشاران يذهب حتى هرع الطفل صوب الماء الذي حرم عليه ، كان النهر يمدو ويتدافع صاخباً مزبداً ، فكان الموجات المصبية أطفال آبهة من رتشاران ، مدوية بضحكات ألف طفل سوي .. فتجوب فؤاد الصغير بالأعيان ، فاندل من عربته يمدو شطر المجرى ؛ وبينما هو في ذلك إذ بصر بمصا صغيرة ، فأنحنى بها على النهر وكأنه بصطاد ، ولكن أرواح البحر كانت تدعوه إليها ، وتناديه أن تعال نلعب ونمزح في صرتمنا الوسيح

وكان رتشاران قد قطف ملء قبضته زهراً ، وعاد وهو يحمله في طرف ثوبه ، والسرور علاً عطفية ويشيع في أساور وجهه ؛ ولكنه عندما باع مكان المربة لم يجد أحداً ، فجال بطرفه فيما حوله ، فلم يجد أحداً ، فجمع إلى المربة بصره ، فلم يجد أحداً ، فتجمد الدم في عروقه ، ودارت الدنيا من حوله ، وكأنه يسبح في ضباب كثيف ، وانبعثت

ثم أقبل فصل الأمطار فأنشأت السماء تعطير الأرض بشآبيب من هطال . فكان النهر الجائع أفعوان هائل يزدرد كل ما يصادفه من المنازل والقري والحقول ، ويغمر بفيض مياها الحشائش الطويلة المشرفة على الساحل الرمل . وبين الفينة والفينة كان يدوي في الغضاء صوت ارتطام المياه بالشاطئ ، وكنت تستطيع أن تسمع هدير التيار من بعد قصي ، فإذا افتربت من النهر هالتك تلك المقادير العظيمة من الزيد يدهمها التيار دفماً عنيفاً

وغيض ماء السماء بعد ظهر يوم من الأيام فلاح الطقس رائقاً دفيئاً وإن جللت الغيوم السماء . ولم يرض السيد الصغير أن يقبض في عقر داره في مثل ذلك اليوم الجميل ، فاستقل عربته الصغيرة ، وراح رتشاران يجره في توان ونخادل ، حتى إذا ما شارف مزارع الأرز الممتدة على شاطئ النهر لم يجد أحداً ، فلا في الحقول أصحابها ولا في النهر قواربه . وإنما انشقت السحب وراء العباب عن شمس دامية مودعة ، كأنها سفينة يمترق في خضم زخار

ووسط ذلك السكون العميق أشار الطفل بأصبعه إلى الأمام على حين غرة ، ثم صاح : « شارنا ! » فعلى مقربة منهما وسط ردغة مستوحلة كانت تقوم شجرة باسمة من أشجار «الكادامبا» وكان السيد الطفل يرمقها بنظرات ملؤها الطمع والتشهي ، ففهم رتشاران مراده ، إذ كان قد أخذ له من أزهارها شبه مرية صغيرة منذ عهد قريب . وما كان أشد سرور الطفل وهو يجرها هنا وهناك لقد شنته اليوم بطوله حتى عن أن يلجم صاحبه ، فارتفع من حصان إلى سائس !

وما كان رتشاران يتواقى إلى أن يخوض في الطين حتى ركبته ليحصل لسيدة على الزهر ،

لقد كان الطفل يزين بحلى من ذهب ... »

— ٢ —

وارتد رتشاران إلى قريته محزوناً كاسف البال ، فلم يك قد نسل حتى ذلك الوقت ، ولم يبق له أمل في نسل . . إلا أن زوجه أنجبت طفلاً قبل أن ينسأخ على قدومه عام ، ثم قضت بحبها ، وخلفته فريسة حنق عظيم ، بغيظه مرأى طفله ، وتعاون الظنون أنه ما جاء إلا ليغصب السيد الصغير مكانته ، ثم أليس من البني أن يقر بطفله عيناً ، وسادته يتقبلون على القناد وجراداً على أبهم وألماً ؟ ولولا عمه أرملة وقفت نفسها على العناية بالطفل لما عاش إلا قليلاً . . . ولكن تحولاً طراً على عقل رتشاران ثم سكن فيه شيئاً فشيئاً . لقد راعه أن بدأ الطفل يحبو بدوره هنا وهناك ، ويجوز باب المنزل وقد ارتسمت على وجهه علام الخبيث والبعث ؛ وكان هو الآخر بارع الحيلة زكى الفؤاد إن شاء هروباً ، بل لقد كان بنبرات صوته ، ورنين ضحكته ، وعو بل بكائه ، ولطيف إيمانه ، يشبه السيد الصغير حذوك القدة بالقدة ؛ حتى لقد كان يخيل لرتشاران وهو يصيح أن سيده الصغير يناديه من وادي الموت السحيق ، ويصرخ باكياً لفقد « شارنا »

وسرعان ما بدأ الطفل يلوك الكلام ، فمرف كيف ينادى « يا — يا » و « ما — ما » في لغواء طفل رضيع ، وانباج السر أمام عيني رتشاران إذ راح السيد الصغير يناديه « شارنا » بعد أن بعث في يده تارة أخرى

ولم يعد يخامر رتشاران أدنى شك في صحة هذا الزعم ، فقد رأى الطفل نور الحياة بعد وفاة السيد بقليل ، وأبوه على بأس من أن يحيى الخاض زوجه العاقر ، ثم إن القادم الجديد كان يعرف كيف ينادى « يا — يا » و « ما — ما » ، وكانت

من أحناء صدره الكسير صرخة بترأ : « مولاي . . . مولاي . . . مولاي الصغير . . . ! » ولكن أحداً لم يناده : شارنا ، ولا ضحك من خلفه طفل غابث ، ولا جاوبته صبيحة صرح من قلب صغير ، ما طرق أذنيه إلا هدير البحر يملو صاحباً من مجرداً كما كان ، كأنه لا يعلم مما حدث شيئاً ، أو كأنه ليس خليقاً أن يلقى السمع إلى ذلك الحادث الانساني العارض ، إلى موت طفل . . .

ومضى الليل لا يزيد قلب السيدة إلا خوفاً واضطراباً ، فبعثت بالرجال يجوبون الحى باحثين ، فانطلقوا والشاعل في أيديهم حتى شارفوا ضفاف البادما ، حيث ألفوا رتشاران يجتاح المزارع كأنه صرصر عاتية ، وبصيح صبيحة اليأس : مولاي . . . مولاي . . . مولاي الصغير . . . !

وعند ما عادوا به إلى المنزل خر تحت قدمي سيدته صمقا ؛ فراحوا يهزونه ويسائلونه عن مكان الطفل ، فلا يظفرون منه بشيء

وأيقن الجميع أن البادما قد ابتلع الطفل ، وإن خاسم شك ضعيف فيما حدث ، فقد شاهد الناس ظهر ذلك اليوم عصبية من النور تضرب في أطراف القرية ؛ وهيات الأم صرارة الشكل ووقدة الحزن أن تشاران ربما كان السارق بيمينه ، فانتبذت به مكاناً بعيداً ، وراحت تبتهل إليه في ضراعة وتوسل : « رتشاران ! أردد إلى طفلي . . . أوام ! أردد إلى طفلي . . . خذ ماشئت من مال وعتاد ، واررد إلى طفلي . . . ! »

فكان رتشاران لا يجيب إلا بالضرب على جبينه ، حتى أمرته سيدته أن يفادر المنزل غير مأجور وأراد أنوكول أن يحاج زوجته ليخاضها من من شكوكها ؛ سألها : « وإساذا بالله يقترف مثل هذا الجرم ؟ » فما أجابته إلا بقولها : « من بدرى !

خدمه كتابع . . وزاد الطين بلة أن رتشاران  
أضمر أبوته لفايلنا ، ولم يكاشف بذلك أحداً  
ولقد كانت أساليب رتشاران الريفية موضع  
سخريه الطلاب من قاطني الفندق ، بل لقد كان  
فايلنا يشار كهم عبثهم ما غاب أبوه . وعلى الرغم من  
ذلك فقد كانوا كلهم يحبون الرجل الطيب المعجوز ،  
وكان ابنه بحبه أيضاً ، ولكن في ترفع وكبرياء  
وتقدم رتشاران العمر وأوقرتة السنون ، فراح  
مخدومه بمدد أخطائه ، ويحصى عليه سقطاته ،  
ويدرك عجزه عن القيام بعمل لم يكن له أهلاً . . .  
فلقد كان يطوى نفسه على جوع ونحمة ، ليوفر  
لابنه أسباب السرور والنعيم . حتى لقد هزل  
جسمه ، وشحب لونه ، وآده عمله ، وضعت  
ذاكرته ، وتبلد ذهنه . ولكن سيده لم يعذره ،  
إذ كان يريد العمل تاماً كاملاً . . ثم إن ما أتى به  
رتشاران من ثمن عقار كان قد نفذ ، وبقي الفتى  
متدسراً بطلب الملابس ، ويريد النقود

— ٣ —

وأخيراً صمم رتشاران على أمر . فأعطى فايلنا  
قدراً من المال ، وقال له : « إني ذاهب إلى البلد  
في عمل ، وسوف أعود وشيكاً » . وسرعان ما قصد  
إلى « باراست » حيث كان أوكول قاضياً ، وكانت  
زوجه ما برحت موجهة القلب مكروية الفؤاد ،  
وقد ران على قلبها الحزن أن لم تلد من بعد  
فقيدها ولداً

وذات يوم كان أوكول يقبل من عناء عمل  
شاق ، بينما كانت زوجته تدفع الثمن الفادح إلى  
دجال جوال ، لقاء عقار يشفي من المقيم ؛ فسُمع  
في رحبة الدار داع يدعو بالتجية فبرز أوكول يرى  
من القادم ، فما أن عرف فيه رتشاران حتى صفا  
إليه فؤاده . وطفق يسأله عن حاله ، ثم وعد بأن

تلوح عليه مخايل قاض فاضل وحكم عادل  
وانتالت على رتشاران ذكرى ما ألصقته به  
سسينته من تهم ، فطفق يتأجى نفسه في ذهول :  
« واهاً لقب الام ما كان كذباً ، إنما أوحى إليها  
أني كنت سارق طفلها . . » وما كاد التفكير  
يؤدي به إلى هذه النتيجة حتى غشيه الندم على  
ما كان من إهماله ، فأججه بروحه وجسمه إلى الطفل  
الصغير ، ومحضه خالص حبه وولائه ، وطفق يتولاه  
كأنه ابن سرى . فابتاع له عربة صغيرة ، وصداراً  
من ساتان أصفر ، وقبعة منمنمة بالذهب ؛ ثم صهر  
حلى امرأته ، وصاعه أساور وخلاخيل . وأبى على  
الطامل أن يلعب مع أطفال جبرته ، فأنفرد برفقته  
ليلاً ونهاراً . حتى إذا ما كبر ونما وعد في الغلمان  
كان الصبي المدلل الأنيق ، يسخر منه أهل القرية  
وينادونه « بيصاحب السعادة » ؛ بينما كان آباؤهم  
يعجبون لشغف رتشاران بالطفل شغفاً بلغ حد  
الوله والجنون

ثم شارف الطفل سن الدرس فباع رتشاران  
ما كان له من عقار قليل ، ثم احتمل إلى كلكتا  
حيث اشتغل بالخدمة بمد لآى وعناء ، ثم بعث  
بابنه إلى المدرسة لا يالو جهداً في سبيل تثقيفه  
وإسماده ، وإن قنع هو بحفنة من الأرز يقيم بها  
صابه ، هامساً بيده وبين نفسه : « آه يامولاي  
الصغير ! يا سيدي العزيز ، لقد أحببتني فعدت إلى  
في بيتي ؛ تالله إن بنالك مني سهو ولا تقصير »

ومضت على ذلك أعوام اثنا عشر ، فاذا الفتى  
قد أجاد القراءة والكتابة ، واستوى على عوده  
وضاحاً قوياً ؛ معنيا بظاهر وسامته ، ممتزاً بشعره  
يفرقه ويساويه ، ميالاً إلى التأنق والتباهي ، مبسوط  
الكف لا يقيم المال وزناً . . حتى لقد أنف أن  
يقر بأبوة رتشاران له ، لأنه وإن أحبه كأب ، فقد

مضى واشتمل الرأس شيئا ، ولم يبق في إلا ذمء  
يخبو رويداً »

وقالت السيدة : « ذره يبق في ذلك سرور  
لطفلي . لقد غفرت له ما تقدم من ذنبه . . . »  
ولكن ضمير القاضي أبي علي رتشاران أن يبقيه ،  
فقال : « كلا . . . فما إلى المغفرة من سبيل . . . »  
وانبطح رتشاران على الأرض بضم قدمي  
أنوكول صائحا : « ذرني باقيا يا مولاي فما أتيت  
شيئا قريا ؛ إنما هي إرادة الله »

وما زاد ذلك أنوكول إلا ثورة خاطر ، فقد  
ثقل عليه أن يهزم القدر رتشاران ، فقال : « كلا .  
فما عدت أستطيع أن أعفو أو أطمئن إليك مرة  
أخرى ، بمد إذ خنت وخفرت ذمائي »

وهب رتشاران فاستوى واقفا ثم قال : « إن  
ما اقترفت إنما ولا جنيت ذنبا . . . »  
فسأله أنوكول : « وإذن فمن فعل ؟ »  
وأجاب رتشاران : « إنه القدر »

ولكن هذا لم يكن عذرا كافيا في عين رجل  
متقف ، فظل أنوكول عنيدا صلدا فؤادا

ولما فهم قائلنا أنه ليس ابن رتشاران بل سليل  
قاض ترى ، غضب وثار أول الأمر ، ظنا منه أنه  
خدع في أصله ومنبته ؛ ثم نهته من غربه أن رأى  
رتشاران حزينا . فقال لأبيه : « سامحه يا أبتاه !  
ودعه يعيش معنا أو فاجر عليه كل شهر نفقة »

ولم يحرج رتشاران بمد ذلك جوابا بل طفق  
يديم إلى وجه ابنه نظرة وداع ؛ ثم صدع لشيئة  
سأده ، فخرج وقد اعتركت في باطنه أشباح شتى  
واكتهل الشهر فصدق أنوكول وعده ، وبث  
بقدر من المال إلى رتشاران في قريته ، فرد إليه  
لأنه لم يكن بين أهل القرية من يدعي رتشاران

شكري محمد عيار

يميده إلى خدمته مرة أخرى . فابتسم رتشاران  
ابتسامة شاحبة ثم قال : « أريد أن أقدم فروض  
الطاعة لمولاتي . . . » فذهب به إلى داخل المنزل ،  
ولكن سيده لم تستقبله بمثل حفاوة سيده فطوى  
رتشاران عن ذلك كشحا ، وضم يديه وهو  
يقول : « نال الله ما استاب البادما طفلك ، بل هي  
جرمتي . . . » فصاح أنوكول : « الله أكبر !  
ماذا ؟ وأين هو ؟ . . . » فأجاب رتشاران : « إنه  
ممي ، وسوف آتيك به بمد غد »

وكان اليوم الأحد إذ القضاء معطل ، فأنشأ  
الزوجان يرقبان الطريق متربصين ، ينتظران على  
الجر قدوم رتشاران ؛ حتى هات طلعت في الساعة  
العاشرة ، ممسكا بيمينه قائلنا

وأخذت الزوجة السلام في حجرها دون أن  
تنبس بكلمة ، ثم استنخفها المرح فهي ضاحكة باكية  
مدلله وتلاعبه ، وتقبله في شعره وجبينه ، ويحدق  
في محياه بأعين جامحة ولهى . كان الفتى قسما وسما ،  
في كساء غطريف ، وثياب غرنيق . فطفح فؤاد  
أنوكول بالبشر والحب ، ولكنه راح يسأل سؤال  
كل قاضٍ : « أما لديك من بيعة أو برهان ؟ »  
فأجاب رتشاران : « وكيف أستطيع على ما قلت  
سوق دليل ؟ إنما هو الله يسمع ويرى ، وبعلم أني  
سارق طفلك ، أنا وحدي لا سواي ! »

ولما رأى أنوكول تعلق زوجته بالطفل وضع  
له عبث السؤال ، فرأى الحكمة في أن يصدق  
ويؤمن ؛ فمن أين لرجل مجوز مثل رتشاران بهذا  
الفتى ؟ ولم يكذبه خادمه الأمين ويخذه على غير  
طائل ؟ ولكنه قال في حزم وصرامة : « رتشاران !  
لم يمد لك في هذا البيت مقام »

وأجاب رتشاران في صوت مرتجف ، وهو  
يضم يديه : وأنتى أذهب يا مولاي ؟ لقد وهن العظم